رثاء كشاجم لوالده (تحليل أدبي)

(أدب عربي)

د/ عبد الله رمضان
قسم الأدب والنقد
كلية اللغات – جامعة المدينة العالمية
شاه علم - ماليزيا
arharidy@gmail.com

خلاصة—هذا الموضوع يتناول رثاء الشاعر الشامي كشاجم لوالده، ويتم فيه تحليل بعض المقاطع المؤسية مما أبدعه كشاجم.

الكلمات المفتاحية. كشاجم، الشام، القرن الرابع، أبو الفتح، حلب، الرثاء، المراثي، الاتجاه الذاتي، رثاء الآباء.

I. *المقدمة*

إذا كان للأم مكانتها الخاصة لدى ابنها فإن للأب مكانته المتميزة أيضا، ومثلما رثى شعراء القرن الرابع الهجري أمهاتهم فقد رثوا آباءهم

II. موضوع المقالة

إذا كان للأم مكانتها الخاصة لدى ابنها فإن للأب مكانته المتميزة أيضا، ومثلما رثى شعراء القرن الرابع الهجري أمهاتهم فقد رثوا آباءهم، ويطالعنا كشاجم - أبو الفتح محمود بن الحسين(١) - بقصيدة في رثاء والده يقول فيها:

أيُّ أَبٍ رُزِئْتُـــــــــــــــهُ   أَهْلَـــكَ صَـــبْرِي إِذْ هَلَـــكْ(٢)

فمصيبته بفقد أبيه لا تعدلها مصيبة حيث أهلك والده صبره بموته، ولم لا يهلك صبره وأبوه كما يقول:

شَمْســـي هَـــوَتْ مِـــنْ فَلَـــكِ الـــ   ـــمَجْدِ ولِلْمَجْـــدِ فَلَـــكْ

فوالد الشاعر شمس كانت تدور في فلك المجد العالي، ويؤكد كشاجم أن "للمجد فلك" وكأنه يوهمنا أن للمجد - وهو معنوي - مدارًا في السماء مثل شمس النهار التي نراها عيانا. وماذا يترتب على سقوط شمس فلك المجد؟ يخبرنا كشاجم:

وكَـــــــوكَبِي دَاجٍ فَقَـــــدْ   دَجَـــا ظَلامِـــي وحَلَـــكْ

فكوكب الشاعر الذي يمثل مكانته وشهرته وتميزه أصبح داجيا، واشتد الظلام من حوله وحلك، ولماذا لا يخبو ويظلم كوكبه، وقد كان يستمد نوره من أبيه "شمس فلك المجد"؟!! وفي ذلك إشارة لطيفة ربما لم يدرك كشاجم حقيقتها في وقته، وهي أن الكواكب ليست منيرة بذاتها، إنما تستمد نورها من الشمس. وبسبب هذا الفقد الذي رزء به الشاعر فإنه عانى من كل أنواع الأسى والآلام:

يَـــا أَبَتَـــا أَيُّ أَسَـــىً   لَـــمْ يَبْـــقَ لابْـــنٍ ثَكَلَـــكْ

تَرَكْتَـــــهُ مُقْتَفِيًـــــا   إلـــى المَعَـــالِي سُـــبُلَكْ

مِـــنْ بَعْـــدِ مَـــا أَدْرَكْـــتَ أو   شَـــارَفْتَ فِيـــهِ أَمَلَـــكْ

وَحَمَـــلَ العِـــبْءَ الّـــذِي   كَـــانَ أَبُـــوكَ حَمَّلَـــكْ

ويزيد من مرارة هذا الأسى الذي أحس به الشاعر أنه كان يتخذ من أبيه هاديا ونبراسا في سبيله نحو المعالي، فكيف به وقد هوى ذلك الهادي؟!

وقد قارب الأب أن يرى ما أمل في ابنه الذي حمل على كاهله العبء الذي حمله أبوه - جد الشاعر - إياه، غير أنه رحل قبل أن يرى الثمار التي أحاطوها بالرعاية على مر الأجيال. ويصبر الشاعر نفسه - لأن المقام لا يجدي فيه غير الصبر - فيخاطب أباه - وهو في الحقيقة يقصد نفسه:

يَـــا أَبَتِـــي كُـــلُّ أَبٍ   يُـــورَدُ يَومًـــا مَنْهَلَـــكْ

إن أباه قد مات وانتهى، فلا فائدة أن يقول له إن كل الآباء سيموتون، ولكنه يواسي نفسه، وكأن لسان حاله يقول: لست أول الناس الذين يفقدون آباءهم ولا آخرهم، فكل الآباء سيموتون حتما. ثم يتساءل الشاعر عن عجب الباكين والراثين لأبيه مظهرا في هذا التساؤل والتعجب من صفات العظمة لأبيه الكثير، وكأن هؤلاء الذين يبكون والده واقفون مشدوهين داهشين لا يصدقون أن ذلك السرير الذي حمله قد استطاع أن يحمل ذلك الرجل الرصين العظيم، وكأنه يشبه أباه في عظمته وشموخه بالجبل الأشم الذي لا يعقل أن تحتويه خشبة يُحْمَلُ عليها كما تحمل الموتى، ويعجبون كذلك كيف يتجرأ هذا التراب على أن يأكل مثل هذا الجسد النوراني الذي هو "شمس فلك المجد" ؟! ويعجبون كذلك كيف أن ذلك الضريح الضيق الجوانب استطاع أن يشمل مثل هذا الرجل وهو العظيم الماجد الذي كان مأواه في "فلك المجد":

مِـــنْ أيِّ شَـــيْءٍ يَعْجَـــبُ الـــ   ـــبَاكُونَ والرَّاثُـــونَ لَـــكْ

أَمِـــنْ سَـــرِيرٍ حَمَلَـــكْ   أَمْ مِـــنْ تُـــرَابٍ أَكَلَـــكْ؟!

أم الضَـــرِيحِ الضَّـــيِّقِ الـــ   أَرْجَـــاءِ كَيـــفَ شَـــمِلَكْ؟!

---

(١)هو محمود بن الحسين بن نصر، كان شاعرا وكاتبا، ولقب كشاجم منحوت من عدة مهن ومواهب كان يتقنها، وهو من شعراء سيف الدولة، وكان فيه تشيع، ويعد من شعراء أهل البيت، وله العديد من الكتب منها: المصايد والمطارد، واختلف في وفاته، فقد ذكر صاحب شذرات الذهب أنه من وفيات سنة ٣٦٠هـ، وذكر السيوطي أنه من وفيات ما بين سنة ٣٤٥هـ، وسنة ٣٥٤هـ. (تاريخ مدينة دمشق: ٥٧/ ١٠٤، شذرات الذهب: ٣٧/٢، كشف الظنون: ١/ ٨٠٧، الفهرست: ١/ ٢٠٠، سير أعلام النبلاء ١٦/ ٢٨٦، فوات الوفيات: ٤٨٣/٢، نوابغ الرواة في رابعة المئات: ص ٢٣٣).

(٢)ديوان كشاجم – محمود بن الحسين بن السندي – تحقيق: مجيد طراد ط ١ (دار صادر – بيروت – ١٩٩٧م) ص ٢٣٩.

ويتمنى الشاعر لو افتدى أباه بنفسه، فاختارته المنايا بدلا من أبيه، ويتمنى لو احتمل جسده العلل التي ألمت بأبيه، لكن الأمور لا تسير كما يحلو لنا، فهي أقدار مكتوبة، وللأيام سننها، غير أن هذه الأيام لم تترصد - في رأيه - إلا أباه لتصيبه بأرزائها وكأنه لم يمت غيره من بين كل المخلوقات:

وَدِدْتُ أَنِّـــــــي للمَنَـــــــا   يَـــا كُنْـــتُ يَومًـــا بَـــدَلَكْ

وَدِدْتُ لـــــو بِجَسَـــــدِي   كُنْـــتُ احْتَمَلْـــتُ عِلَلَـــكْ

كَأَنَّمَـــا الأَيَّـــامُ لَـــمْ   يُعْجِـــزْنَ إلا حِيَلَـــكْ

أو لـــم يَمُـــتْ غَيـــرُكَ مِـــنْ   إِنْـــسٍ وَجِـــنٍّ وَمَلَـــكْ

ثم يختم رثاءه لأبيه بالدعاء، فهو يدعو الله أن يتغمد والده بحسن العفو عن زلاته وأن يسامحه وألا يكله إلى ما قدمت يداه:

تَغَمَّـــدَ اللهُ بِحُسْـــــ   ـــنِ العَفْـــوِ مِنْـــهُ زَلَلَـــكْ

مُسَـــامِحًا غَيـــرَ مُـــوَفٍّ   بالحِسَـــابِ عَمَلَـــكْ

ولا إلـــى مـــا قَـــدَّمَتْ   يَـــدَاكَ مِنـــهُ وَكَلَـــكْ

ولا يخفى ما في دعاء كشاجم لأبيه من تأثر بالثقافة الإسلامية والموروث الديني.